خاتمة المأساة الأندلسية :

الصراع الاخـــير

بين الموريسكيين واسبانيا

للاستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

حدث أثناء المفاوضات التي جرت في مونترو بين مصر والدول لالغاء الامتيازات الأجنبية أن تقدم الوفد الاسباني بطلب يختص باليهود « السفرديم » المقيمين بمصر ، هو أن يعاملوا كالرعايا الاسبانيين وأن يمنحوا مزية التقاضي أمام المحاكم المختلطة أثناء فترة الانتقال ، وشرح أحد أعضاء الوفد بواعث هذا الطلب لممثلي الصحف ، فقال : إن هؤلاء اليهود « السفرديم » هم من ذرية اليهود الاسبانيين الذين طاردتهم مجالس التحقيق « محاكم التفتيش » في القرن السادس عشر وشردتهم عن وطنهم في مختلف البلاد ، وأن اسبانيا الجمهورية التي تحررت من نزعات التحامل والتعصب تريد أن تقدم ترضية لسلالة هذه الطائفة التي نكبت في عصور الظلم والتعصب والطغيان .

وهذه الملاحظة تثير الشجن . ذلك أن اسبانيا النصرانية تعترف بعد أربعة قرون بزلتها التاريخية الكبرى ، وتلعن مع التاريخ ذكرى ديوان التحقيق . بيد أن هذا الاعتراف ليس إلا لمحة بسيطة من الحقيقة المروعة ؛ ذلك ان اسبانيا النصرانية ماكادت تظفر بتحقيق سياستها الوطنية القديمة في سحق اسبانيا المسلمة والاستيلاء على تراثها كله والظفر بغرناطة آخر معاقلها ، حتى وضعت برنامجها الشائن لمحو تراث الأندلس ، وسحق الاسلام وكل ذكرياته وآثاره ، وإبادة هذه البقية الباقية من سلالة المسلمين والعرب الذين لبثوا سادة في الجزيرة زهاء ثمانية قرون ؛ وكان اليهود الذين عاشوا وازدهروا في ظل الدولة الاسلامية ، كالمسلمين ضحايا هذه السياسة البربرية ؛ وكانت محاكم التحقيق تنشط لمطاردة الضحايا ، وكانت محارقها تسطع في مختلف القواعد الأندلسية القديمة حتى قبل سقوط غرناطة ؛ وكان سقوط غرناطة في فاتحة سنة ١٤٩٢م نذير المأساة المروعة التي لم تستطع اسبانيا النصرانية في حمى الظفر وغلوائه أن تقدر عواقبها المخربة ؛ وكان المسلمون المغلوبون قد أخذوا على الظافرين قبل التسليم كل ما يستطيع أن يأخذه الضعيف على القوي من العهود النظرية ، لتأمين النفس والمال والعرض ، والدين والتراث القومي ؛ ولكن هذه العهود التي لا سند لها إلا إرادة الظافر ، لم تكن شيئاً مذكورا في نظر اسبانيا النصرانية ؛ فلم تمض سوى أعوام قلائل ، حتى كشفت اسبانيا النصرانية عن سياستها ونياتها الحقيقية فسحقت العهود المقطوعة وأرغمت المسلمين على التنصر ، ولم تدخر وسيلة من الوسائل البربرية ، من سجن وحرق وتشريد وتعذيب إلا استعملتها لتحقيق هذه الغاية ، وسطعت محارق ديوان التحقيق في غرناطة كما سطعت من قبل في غيرها من قواعد الأندلس لتلتهم المخالفين والمارقين ، وغدا أبناء قريش ومضر نصارى يشهدون القداس في الكنائس ويتحدثون القشتالية ، واختفت آثار الاسلام والعربية بسرعة ، واستحال الشعب الأندلسي إلى مجتمع جديد هو مجتمع الموريسكيين أو العرب المتنصرين

ولقد كان استشهاد الموريسكيين من أروع مآسي التاريخ ، وكان هذا الشعب المهيض الذي أدخل قسرا في حظيرة النصرانية ، والذي أنكرته مع ذلك إسبانيا سيدته الجديدة وأنكرته الكنيسة التي عملت على تنصيره ، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة ، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد ؛ ولكن إسبانيا النصرانية كانت ترى في هذه البقية الباقية من الشعب الأندلسي المجيد عدوها القديم الخالد ، وتتصور أن هذا المجتمع المهيض الأعزل ، الذي أحكمت أغلالها في عنقه مصدر خطر دائم على سلامها وطمأنينتها ، وتشتد في مطاردته وإرهاقه بمختلف الفروض والقوانين والمغارم ، وتمعن في انتهاك عواطفه وحرماته وفي تعذيبه وتشريده ، وتنكر عليه أبسط الحقوق الانسانية ؛ وكانت محاكم التحقيق تحمل هذه الرسالة الدموية المخربة ، وتعمل على تنفيذها بوحشية لم يسمع بها ؛ واستطالت هذه الوندالية منذ

سقوط غرناطة أكثر من قرن . بيد أن الموريسكيين يحملهم اليأس العميق ، وغريزة الدفاع عن النفس ولمحة باقية من عزم النضال القديم ، لم يخلدوا إلى هذا الاستشهاد المؤسى ، دون تذمر ، ودون انتقاض ، فقد ثاروا غير مرة على الطغاة والجلادين ، وحاولوا مقاومة هذه السياسة الوندالية والخروج على فروضها ؛ ولكن يد الطغيان القوية مزقتهم وسحقتهم بلا رأفة ، وتركتهم أشلاء دامية

وكانت أعظم ثورة قام بها الموريسكيون فى وجه اسبانيا النصرانية سنه ١٥٦٩ م . أعنى بعد سقوط غرناطة بثمانية وسبعين عاماً ؛ وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ وغاضت منهم كل مظاهر الاسلام ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد كان لا يزال يجثم فى قرارة هذه النفوس الأبية الكليمة ؛ ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية فى اكتساب شيء من ولائها المغصوب ، وكان الموريسكيون يحتشدون فى جماعات كبيرة وصغيرة فى بسائط غرناطة وفى منطقة البشرات الجبلية تتوسطها الحاميات والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية وثيقة بثغور المغرب

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القومية لا زالت تربط هذا الشعب الذى زادته المحنة والخطوب اتحادا وتعلقاً بتراثه القومى والروحى ؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه بكثير من البغضاء والحقد ؛ فلما تولى فيليب الثانى الملك ألفت فرصتها فى اذكاء عوامل الاضطهاد والتعصب . وكان هذا الملك المتعصب حبرا فى أعماق نفسه ، يخضع لوحى الأحبار والكنيسة ، ففى سنة ١٥٦٣ ظهرت بوادر السياسة الجديدة إذ صدر قانون جديد يحرم حمل السلاح على الموريسكيين إلا بترخيص من الحاكم العام ؛ فأثار صدوره سخط الموريكسيين ؛ بيد أنه كان مقدمة لقانون بربرى جديد أعلن فى غرناطة فى يناير سنة ١٥٦٧ وهو الشهر الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به كل عام وكان القانون الجديد يرمى إلى القضاء على آخر المظاهر والتقاليد التى تربط الموريسكيين بماضيهم وتراثهم القومى ، فحرم عليهم أن يتكلموا العربية أو يتعاملوا بها ، وأن لا يستعملوا سوى القشتالية فى التخاطب والتعامل وذلك فى ظرف ثلاثة أشهر من صدور القانون ، وألا يتخذوا أسماء عربية ، أو يرتدوا الثياب العربية ، وحظر التحجب على النساء وألزمن بارتداء الثياب الأوربية المكشوفة وذلك فى ظرف عام ، وأن تبقى بيوتهم مفتوحة أثناء حفلات الزواج وغيرها ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والمراسيم المحرمة ، وألا ينشدوا الأغانى العربية أو يزاولوا الرقص العربى ، وفرضت للمخالفين عقوبات فادحة تختلف من السجن إلى النفى والاعدام

أعلن هذا القانون فى غرناطة فى ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة فى يناير سنة ١٥٦٧ ؛ ونستطيع أن نتصور وقعه لدى الموريسكيين فقد فاضت قلوبهم سخطاً وأسى ويأساً ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لالغائه أو على الأقل لتخفيف وطأته ، فاجتمع أعيانهم وقرروا التظلم للعرش ، وحمل رسالتهم إلى فيليب الثانى وإلى وزيره الطاغية اسبنوسا ، سيد إسبانى نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وقد كان يعطف على هذا الشعب المنكود ويرى خطر السياسة التى اتبعت لابادته ؛ ولكن وساطة ذهبت عبثا وحملت سياسه العنف والتعصب كل شيء فى طريقها ، ونفذت الأحكام الجديدة فى المواعيد التى حددت لها ، وأحيط تنفيذها بمنتهى الصرامة والشدة .

عندئذ بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة والذود عن أنفسهم أزاء هذا العسف المضنى أو الموت قبل أن تنطفىء فى قلوبهم وضمائرهم آخر جذوة من الكرامة والعزة وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضى المجيد والتراث العزيز .

— ٢ —

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية ؛ ومن الأسف أننا لم نتلق عن هذا المرحلة المؤسية من تاريخ اسبانيا المسلمة شيئا من الروايات العربية ، وكل

ما انتهى إلينا منها عن المأساة أثر صغير يسمى «أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر» كتبه فيما يظهر مسلم أو موريسكي من أشراف غرناطة وذلك سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٢ م) أعني بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة. وفيه يصف حوادث سقوطها وما تلا ذلك من ارغام المسلمين على التنصر، ومن مطاردتهم وإرهاقهم وتعذيبهم، ويجمل لنا مأساة التنصر في هذه الكلمات المؤثرة.

ثم بعد ذلك دعاهم (أي ملك قشتالة) الى التنصر وأكرههم عليه وذلك في سنة اربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرها، وصارت الاندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن. فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين لم يقدروا على الهجرة واللحوق باخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلا غزيرا، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب وعذب بأشد العذاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وظامة ما أكبرها.(١)

بيد أن هذه الرواية العربية الوحيدة تقف في تتبع حوادث المأساة عند هذا الحد؛ وإذن فليس لدينا لتتبع حوادث هذا الصراع الأخير بين الموريسكيين وبين اسبانيا النصرانية سوى المصادر القشتالية؛ وإذا كانت هذه المصادر النصرانية، تتأثر في كثير من المواطن بالعوامل الدينية والقومية، فانها مع ذلك تعرض هذه الحوادث المؤسية في أسلوب مؤثر، ولا تضن في بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها على ذلك الشعب الباسل الذي لبث يناضل حتى الرمق الأخير عن كرامته وعن تراثه الروحي والقومي.

(البحث بقية)
(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) أخبار العصر (طبعة المشارق ميلر) ص ٥٤، ٥٥

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٥ —

الديانة المصرية — قداسة الحيوان عند الخاصة

بقي علينا قبل أن نغادر فصل الألوهية عند قدماء المصريين أن نبين حقيقة علمية ظلت مستورة وقتا طويلا يكتنفها الغموض ويحوطها الابهام من كل جانب، وظل العلماء والباحثون يتخبطون في حل مشكلتها مدى بعيدا. تلك المشكلة هي عبادة المصريين للحيوانات التي طالما كانت موضع الحيرة من المستعمرين الذين يدينون بمدنية مصر الفائقة ورقي عقليتها الممتاز الذي لا يتفق مع عبادة الحيوانات تحت لواء منطق مستقيم

وها نحن أولاء نبين رأي الخاصة المتفلسفين في عبادة الحيوان بعد أن أبنا في الكلمات السابقة منشأ عقائد العامة الذين كانوا يعبدون تلك الحيوانات دون أن ينشغلوا بأسباب هذه العبادة. وقد ذكرنا لك فروض العلماء التي تمحلوها في هذا الشأن؛ أما الخواص من المصريين فمبررات عبادتهم للحيوان تتلخص فيما يلي:

كان المصريون يعتقدون أن الروح تعود بعد الموت فتقطن في المومياء المحنطة وفي التمثال الحجري على ما سنبين ذلك في بابه، ثم تدرجوا إلى أن للإنسان عدة شخصيات بعضها مادي وبعضها روحي، وأن كل شخصية من هذه الشخصيات يمكن أن تستقل بنفسها في مأوى خاص وإذا كان هذا شأن الانسان فأحر بالإله — وهو الأعظم روحانية — أن يكون له عدة شخصيات تحل كل واحدة منها في مأوى، ثم فكروا فهداهم تفكيرهم إلى أن مآوي شخصيات الإله لا يصح أن تكون ميتة كالمومياء ولا حجراً بارداً كالتمثال، وإنما يجب أن تكون مستحوزة على الحياة الواقعية وأن تكون غير إنسان، فأخذوا يحلون الإله تارة في ثور وأخرى في تمساح،